



سارتر وفلسطين في الفكر العربي المعاصر

أ.د. أحمد عبد الحليم عطية

أستاذ دكتور الفلسفة في جامعة القاهرة ورئيس تحرير أوراق فلسفية

قبل أن نتناول الموقف أو المواقف المختلفة التي اتخذها سارتر تجاه القضية الفلسطينية والتي أحدثت تحولاً جذرياً في تعامل المفكرين العرب معه بسبب تردده وحياده، وتعاطفه وانحيازه إلى الموقف الصهيوني المعتصب لفلسطين، نستعرض الحماس السابق للمثقفين العرب تجاه صاحب فلسفة المواقف، الذي اختلطت في كتاباتهم حوله أمانيتهم وطموحاتهم مع كتاباته وآرائه. ونتج عن ذلك صورة يمكن أن نسميها «سارتر العربي»؛ حيث ظهر سارتر فيما قدم عنه في العربية باعتباره صورة «للضمير الإنساني» و«عاصفة على العصر». ودبجت حوله المقالات وفتحت معه الحوارات وتوجهت إليه الخطابات وكثرت الدراسات وقدمت الملفات التي لا تحتوي فقط على فلسفته، بل على حماسنا الشديد لها وأملنا الكبير فيها. لقد ظللنا ما يقرب من ربع قرن نحيا مرحلة سارتر التي بدأت في حياتنا الثقافية بعد الحرب العالمية الثانية وسيطرت سيطرة طاغية على كتاباتنا حتى حرب يونيو/ حزيران 1967.

ويمكن استقراء ما حدث من فصله الأخير، حين نشر إبراهيم عامر مقالاً في مجلة

الهلال كانون الثاني/يناير «1968» بعنوان «ما بعد سارتر»، وتعني هذه الدراسة -من حيث موضوعها وتاريخ نشرها- نهاية مزدوجة لفلسفة سارتر بظهور البنيوية وعودها وتجاوزها للوجودية وسجلاتها المتعددة مع سارتر، من جانب، كما تعني توقف حماس المثقفين العرب بعد حرب يونيو/حزيران 1967 مع إسرائيل، التي انحاز سارتر إلى جانبها بعد زيارته الشهيرة لمصر في مارس/آذار من العام نفسه من جانب آخر¹، حيث توقفت أو قلّت ترجمة أعماله واقتصرت على بعض كتاباته الفنية والأدبية، مما أدى إلى تحول الاهتمام به إلى الدراسة الأكاديمية البحث على أساس أنه أصبح جزءاً من تاريخ الفلسفة بعدما كان جزءاً من الثقافة العربية الحية التي تسهم في صياغة فكر العرب الحديث ووجدانهم.

وهذا يعني تميز مرحلتين في تعامل المثقفين العرب مع سارتر وكتاباته ومواقفه يفصل بينهما التاريخ السابق، مرحلة تنامي أفكار الحرية والاستقلال والتقدم والعدالة الاجتماعية؛ التي لم تُؤسس في وعينا نظرياً، فكان سارتر بالنسبة لنا أملاً في تدعيم وبلورة هذه الرؤية وتوضيحها وتأسيس طريق الحرية والتقدم ومرحلة الهزيمة والانكسار وحساب ونقد الذات والغرب؛ الذي يعد سارتر جزءاً منه، وكما يتخذ مواقف مؤيدة يمكن أن ينحاز أو يقع تحت تأثير القوى الصهيونية، كما يتضح من كتاباتنا حوله، التي تعبر عنّا مثلما تعبر عن فلسفته. سوف نتوقف أولاً عند مجموعة من الاستشهادات من الكتاب العرب حول سارتر توضح لنا الصورة التي رسمت له في الوجدان والعقل العربي. ثم نعرض للمواقف العربية المختلفة؛ المتعلقة بكتاباته ومواقفه من القضية الفلسطينية والمسألة اليهودية في الصراع العربي الإسرائيلي.

أولاً: صورة سارتر عند العرب:

I - «كلما كتب سارتر يكتب عنه، وكلما زاد سعينا للإمساك به انفلت، وها هو يخلق مثل طائر ثمل قضي عليه بأن يطير في السماء مثلما حكم على آخرين بأن يحفروا الأرض. هكذا كتب المغربي عبد الكبير الخطيبي بالفرنسية، لنستمع إلى ما كتبه تصويراً لصدى مواقفه



فيينا، يقول: «كان بعض قدماء المحاربين قد صاحوا خلال الستينيات في قلب الشانزليزيه «اعدموا سارتر» وذلك لموقفه من القضية الجزائرية²، فمن منا لم يكن يحس في أعماقه بتضامن مع سارتر؟ لقد كنّا نحلق معه عندما يخلق ونهيم عندما ما يهيم، يا لها من لذة؟ كانت تلك اللحظات الممتازة التي نستشعر فيها ذبذبة التاريخ في جسمنا تجعلنا نبذل ما يفوق طاقتنا. كم كان الفرح الذي يبعثه فينا هذا الوجد الثوري عظيمًا. أما الغرب مرتاح الضمير فكان يرتعد خوفًا. إنه معنا ومنا يهزنا ويطربنا، وينشينا، تزيدنا مواقفهم حماسًا ولذة»³.

وتحت عنوان «نحن وسارتر» صدر سهيل إدريس افتتاحية أحد أعداد مجلة الآداب البيروتية، والتي ساهمت مثلما أسهمت دار الآداب في التعريف بفلسفة سارتر وترجمة كتاباته، كما يتضح من «رسالة إلى سارتر» التي قدمها في العدد الخامس من الآداب «1965» وهو يرفق بهذه الرسالة نسخة من المجلة صدرت منذ حين، خصصت الصفحات الأولى منها للحديث عنه بمناسبة رفض جائزة نوبل. يقول له: «إن دار الآداب قد أخذت على عاتقها تعريف القراء العرب بمؤلفاتكم الحرة أعمق الحرية.

أما لماذا هذا الاهتمام الذي نجده لدى سهيل إدريس في هذه اللحظة؟ فإن تفسيره يتضح في أن العرب وجدوا في كتابات سارتر ما يعبر عن معاناتهم وهمومهم. لقد كان من المفروض أن ينشأ لدينا بعد كارثة فلسطين أدب يعكس أوضاعنا وهمومنا ويعبر عن أشواقنا لمحو هذه اللطخة من تاريخنا، ولكن أجيالنا الجديدة حين افتقدت هذا الأدب راحت تبحث في الآداب الأجنبية عما يعبر عن قلقها وتمزقها وضياعتها وآمالها كذلك، فوجدت هذا كله في الأدب الوجودي عامة وفي آثار سارتر خاصة»⁴.

ولا يختلف ما كتبه الوجودي اللبناني عما كتبه الماركسي المصري أحمد عباس صالح في رسالة وجهها إلى سارتر على صفحات مجلة الكاتب القاهرية في العدد 72 عام 1967 اللهم إلا في أن الأول يرى في كتابات سارتر تعبيرًا عن معاناتنا الماضية والحاضرة والثاني يرى فيها وفي مواقفه مساندة لآمالنا الحاضرة والمستقبلية. وفي الحالتين هو يقوم نيابة عنا

في وصف همومنا وتحقيق آمالنا. يقول فيها: «ليس جديداً عليك أن تعرف مدى تأثيرك في الثقافة المعاصرة، ولكن الذي قد تتردد في تصديقه هو أنك لمست شغاف القلب لدى المثقفين العرب... إن تأثيرك في هذا الوطن أعمق وأوسع من تأثير أي كاتب آخر»⁵. وما يضيفه عباس صالح يوضح شعوراً جماعياً بأن سارتر هو المفكر الذي ينتظره العرب، والذي سيحقق كل أمنيتهم.

كان تعبير كتابات سارتر عن المعاناة، ومواقفه المؤيدة لنضال وكفاح الشعوب هما أساس خطاب المثقف العربي إلى سارتر مناشدة له من أجل تفهم القضية الأساسية التي تشغلهم في 1967 قضية فلسطين مما دفعهم إلى دعوته لزيارة القاهرة وكان قبوله لهذه الزيارة مصدراً للسعادة التي تتضح فيها كتبه سهيل إدريس: «فهذه الزيارة تثلج صدور جميع المثقفين العرب..... وهذه الزيارة تحمل جانباً آخر من الأهمية، هو ما يرتبط بإقناع سارتر بعدالة قضية العرب؛ قضية فلسطين»⁶.

سرى حماس في كتابات المثقفين العرب، حيث اعتبر الروائي المصري يوسف إدريس في العدد 45 من مجلة الكاتب «1964» أن حادث العام الأدبي هو رفض سارتر جائزة نوبل فيما كتبه عن «جائزة رفض الجائزة». وأطلق عليه الناقد جلال العشري في مجلة الفكر المعاصر «سارتر ضمير العصر». لقد تكثف الحضور السارترى وبلغ ذروته في الشهور الأولى من 1967، حيث صار الحماس عاماً بخطابات متعددة وتحليلات متنوعة تظهر العشق الذي سرى في الوجدان، والإقناع الذي ساد العقل تجاه أفكار سارتر. وندل على ذلك بمثالين، أولهما كتب بلغة أدبية شاعرية والثاني بلغة تحليلية منطقية.

إن ما أوردناه من استشهادات سابقة يوضح ما سمّاه زكي نجيب محمود «الجاذبية العقلية»، وسمّاه الخطيبي «الوجد الثوري»، وسمّاه عباس صالح «لمس شغاف القلب»، وسمّاه مجاهد عبد المنعم مجاهد «العشق»، وهو تعبير عن الحماس الذي سرى في كيان المثقفين العرب، والذي تبدى في ترجماتهم له وكتاباتهم عنه أو حتى نقدهم لأعماله ومواقفه. ووجد



العرب أنه ربما يكون في فكر سارتر، التحدي الذي كانوا يرجونه، فكان سارترهم الذي شغلوا به، ورسوموا له صورة خاصة عبر مئات الدراسات التي قدمت عنه والتي أوجدت حالة ثقافية ندر أن توجد، اسمها سارتر، مما لخصه خيرى منصور أدق تلخيص في العدد الثالث من «الفكر العربي المعاصر» تحت عنوان «سارتر والعرب» يقول: «لدى قراءة ما يكتبه مثقفو العرب عن سارتر، نشعر كما لو أنه من اكتشافنا، وقد لا نبالغ إذ قلنا إنه من صنعنا نحن. منذ استضافته في مكتباتنا أو بلوغه هناك، وهو الأكتف حضوراً في شؤونا كلها في الأدب كما في السياسة، في نمط السلوك كما في النوايا، إنه بهذا المعنى قرين مرحلة، ما إن يرنّ اسمه «ككعكة بروس» حتى تضاء ذاكرة جيل يجزم بأفضلية الماضي القريب، برصانة هذا الماضي وجديته على الأقل»⁷.

والحقيقة أن استقبال سارتر في الفكر العربي المعاصر اتّسم بالحدة والجدال والصراع. وتلك هي الملاحظة الواضحة، فكما تحمّس المثقفون العرب لأفكار الحرية والالتزام والمسؤولية، فإن هناك من وجد في الوجودية فلسفة رجعية، وكما ترجمت «الوجودية نزعة إنسانية» إلى العربية ترجمت أيضاً دراسة جان كانابا، «الوجودية ليست فلسفة إنسانية»، وكما ترجم ر.م. البريس «سارتر والوجودية» - الذي يعدّ كما جاء في الترجمة العربية وصفاً دقيقاً للفكر السارترى وفيه إنصاف له - ترجم أيضاً كتاب لوك لوفافر «سارتر والفلسفة»؛ الذي يواجه بدعة الوجودية ويقدم نقداً لها، فمع الحماس كان النقد، وإن غلب الحماس، ومع هذا فإننا نستطيع أن نتبين أشكالا متعددة من النقد الفلسفي والديني والسياسي لعمل سارتر ودوافع متنوعة لهذا النقد، علينا أن نشير إليها ونحلل دوافعها.

ورغم أن عبد العظيم أنيس يهاجم الوجودية باعتبارها فلسفة اجتماعية رجعية؛ فهو يقصد فلسفة سارتر أساساً، اعتماداً على ما كتبه جارودي في فترة ماركسيته عن أدب المقابر، وهو يواجه ما كتب في مجلة «الكاتب المصري» منذ فترة هذه الفلسفة، ويعرض للوجودية كفلسفة اجتماعية يتزعم شرحها والدفاع عنها سارتر الأديب والفيلسوف الفرنسي المشهور، الذي حين يتحدث عن الحرية لا يعني إلا الفوضوية في أجلى معانيها. ويرى أنيس أننا نفهم

موقف الوجودية من جذرين أساسيين للحرية والإرادة البشرية، ألا وهما العلم والتاريخ، فالوجودية تذكر كل محصول البشرية من التجارب في الماضي ولا تأبه به «يجب أن يبدأ الإنسان من اللاشيء» هكذا يقول سارتر.

وفي الفكر العربي المعاصر، هناك من حاول الربط بين «سارتر والماركسية» مثلما فعل جورج طرابيشي؛ الذي ترجم عددًا من أعمال سارتر، وذلك في دراسته التي تحمل عنوان «سارتر والماركسية» الصادرة عن دار الطليعة في بيروت 1964، والكتاب تعبير عن أزمة وتصوير قلق وحيرة جيل الستينيات في البحث عن أساس نظري للاشتراكية العربية، تلك التسمية التي أشار إليها المؤلف أكثر من مرة في المقدمة حين يقول: «كنا نشعر أن الأرض غير ثابتة تحت أقدامنا. كنا نشعر أننا دون نظرية. وكانت النظرية الاشتراكية الوحيدة الممكنة آنذاك تومي إلينا بالخوف. وحين أخذنا بالقراءة لم نقرأ لكي نكون اشتراكيين فعلاً، بل لنستطيع الوقوف في وجه الماركسية المرعبة»⁸.

ومن خلال هذا الجو الحذر والحيطه من الماركسية اكتشفنا سارتر. وكان سارتر في هذه اللحظة بالنسبة لهم الفيلسوف المنتظر، الذي يلبي مطلبين في وقت واحد، الرفض اليساري للنظم المسيطرة على الواقع العربي، والثوري اللاماركسي. لقد صنعوا له صورة وفق احتياجاتهم وتصوروا سارتر الذي يناسبهم، ومن هنا كانت صورة عربية لثوري غير ماركسي قبل أن يكتب «نقد العقل الجدلي». لقد كان أمام هؤلاء الفتية العربيين اليسار خطوة تجاه الماركسية، فكان سارتر هو هذه الخطوة⁹.

لقد كان سارتر في الخمسينيات والستينيات المفكر الأكثر فاعلية في الثقافة والفكر العربي، حيث ربط المثقفين العرب فلسفته الوجودية، والإنسانية بالتراث والتصوف الإسلامي بحثاً عن مذهب فلسفي يكون أساس النهضة المعاصرة، وأكد مثقفون آخرون على الصلة بين وجودية سارتر والماركسية تلبية للرغبة في إيجاد طريق ثوري لمشكلات الواقع العربي في مسألتين شغلنا العرب في هذه المرحلة هما: التأكيد على الاستقلال القومي والرغبة في



التحول الاجتماعي؛ لذا ظهر سارتر وكأنه فيلسوف عربي وبدت أعماله تعبيرًا عن معاناتنا وواقعنا وطموحاتنا، وكانت مواقفه وكتابه حلولًا للمشكلات التي تأخذ بحياتنا وإجابة للسؤالات التي يقدمها الواقع المأزوم، لقد كان سارتر هو الحل أو هو الأمل في حل القضايا الأكثر إلحاحًا، قضية الصراع العربي-الإسرائيلي أو بمعنى أدق القضية الفلسطينية. وهنا حدث التحول عن سارتر وتوقف الحماس الجارف لفلسفته، وتحولنا إلى الذات ومحكمة الذات، سواء في علاقتها بنفسها أو علاقتها بالآخر.

وقد شهد العام 2005 احتفالًا متعدد الأوجه بمئوية سارتر، حيث أصدرت جريدة أخبار الآداب ملفًا مهتمًا حول سارتر، كذلك فعلت جريدة القاهرة التي تصدرها وزارة الثقافة المصرية فأصدرت عددًا حوله في 12 تموز/ يوليو من نفس العام، وأقام المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ندوة دولية كبرى له. تحت عنوان «وجوديون، ويساريون وصهاينة» كان ملف جريدة القاهرة؛ الذي تصدره حوار مع محمود أمين العالم تحت عنوان «هذا تفسيري لخيانة سارتر للعرب وانحيازه لإسرائيل». وهو يرجع ذلك لتأثير سيمون دي بوفوار ولاينزمان بأصولهما اليهودية ونجاح الدعاية الصهيونية في تسويق المأساة اليهودية. بينما كتب كامل زهيري أن تأييد سارتر للدولة العبرية لم يكن أكبر أخطائه، بل كان تصوره أن اليسار العربي هو الفرصة الوحيدة للصلح مع إسرائيل أفدح هذه الأخطاء. ويحلل مجاهد عبد المنعم مجاهد؛ الذي ترجم لسارتر وعنه عدة أعمال أسباب هذا الولع العربي بـ«سارتر»، كما ضمّ الملف أيضًا عددًا من المقالات والحوارات والدراسات، من أهمها الفصل الذي نشرته الجريدة من كتاب علي السمان «أوراق عمري» عن زيارة سارتر لمصر.

2- المسألة اليهودية وتناقضات سارتر

يُحلل كتاب سارتر «تأملات في المسألة اليهودية» مُعاداة السامية ويدعم الصهيونية، لكن ذلك يتم على حساب حقوق الشعب الفلسطيني¹⁰ يُحلل سارتر في هذا الكتاب ما يميز ظاهرة «معاداة السامية» سلوكيًا واجتماعيًا وتاريخيًا. وما يميز اليهود ما بين العرق والتاريخ. ورغم

أهمية النقد في التحليل الفلسفي الوجودي للمسألة اليهودية، فإن سارتر، كما يذكر محمد الهلالي تخلى عن سلاح النقد في التعاطي مع الفلسطينيين؛ فهو لا ينتقد المشروع الصهيوني. بل يدافع على أن «الصهيونية هي الجواب عن مشكلة اليهودي المضطهد». وهكذا قدم تبريراً نظرياً وفلسفياً للصهيونية لا مثيل له. مؤكداً أن كتاب سارتر عن المسألة اليهودية هو من أهم الكتب المساندة فلسفياً للصهيونية.

ينطلق سارتر من أن أساس المسألة اليهودية هو غموض الهوية اليهودية. فالتهود (الانتماء لليهودية) يصاحبه انزعاج اجتماعي. «فاليهودي هو من يعتبره الآخرون يهودياً»؛ يقول: إنه «إنسان في موقف»؛ أي فرد واقعي ملموس في وضعية اقتصادية واجتماعية وسياسية محددة. ولذلك فمميزاته الجسدية ليست إلا عاملاً من بين عوامل أخرى، فليس جسده هو الذي يجعله يهودياً. فالمسألة ليست مسألة عرق، فاليهود مختلفون فيما بينهم في مكوناتهم الجسدية. أما من الناحية التاريخية فهم فقدوا تدريجياً مميزاتهم الوطنية والدينية حتى صاروا «جماعة تاريخية مجردة». لذلك من الصعب أن يكون لهم مرجع تاريخي موحد. فما يجمعهم هو «ذاكرة حزن طويل» وعداء المسيحيين لهم. ومن هنا يرى أن الفشل في تحديد هوية اليهودي اعتماداً على عرقه ستقود إلى الاعتماد على دينه أو على «المجتمع الإسرائيلي». ومن الملاحظ أن الأمم المعاصرة لا ترغب في استيعاب اليهود لأنها ترى فيه مصدرًا لمجموعة من الشرور¹¹.

يؤكد «الجوهري» مترجم هذا الكتاب أن من أهم أسس جان بول سارتر في مقارنته لوجود دولة إسرائيل في فلسفته «الصهيونية الوجودية»، هو التعامل مع المشكلة كواقع موجود بالفعل وأمر مسلم به، بغض النظر عن تاريخه، مع تهميش أو إنكار ما نتج عنه من مشاكل تخص وجود الشعب الفلسطيني؛ الذي قام سارتر باضطهاده ونفيه ومصادرة حريته الوجودية؛ مساوياً بين المعتدي والمعتدى عليه، حيث يرى سارتر النزاع العربي-الإسرائيلي صراعاً بين مضطهدين يصعب حله، إذ يستوجب -حسب رأيه- التسليم بحقيقتين متضادتين: فمن ناحية لا بد من كيان وطني لضحايا اللاسامية القدامى، ومن ناحية أخرى، لا بد من تمكين الفلسطينيين من حقهم في الرجوع إلى الوطن الأم، وفي سعيه لدعم حرية



اليهودي صاحب الصورة النمطية في أوروبا.

عند سارتر وجود الكيان الصهيوني في فلسطين؛ معطى تاريخي لا يمكن الطعن فيه، وأن المشكل الذي ما زال معلقاً هو وجود اللاجئ الفلسطيني، لا وجود الشعب الفلسطيني. يذهب «الجوهري»، إلى أن جان بول سارتر كثيراً ما تحدث عن اللاجئ الفلسطيني في الشتات وحقه، لكنه سكت طويلاً عن الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال في أرضه؛ تحدث عن الحقوق والأوضاع الإنسانية لكنه أبداً لم يرد في ذهنه أن يتحدث عن الدولة، عن ذلك الكيان السياسي للفلسطينيين، ربما كان سارتر في وعيه الباطن يعلم حتمية الصراع بين الكيانين، لذا اختار الانحياز لمنطقه الفلسفي المزعوم عن «الوجودية اليهودية» وتمثلها الصهيوني على أرض فلسطين¹².

وهنا، فإن سارتر متناقض ويظهر تناقضه في رفض تسلم جائزة نوبل التي مُنحت له سنة 1964. لكنه مع هذا لم يرفض تكريم جامعة أورشليم الإسرائيلية له بقبوله الدكتوراه الفخرية منها. وهو مدرك دلالة هذا القبول. ولقد برّر تصرفه هذا بقوله: «قبلت هذه الدكتوراه الفخرية لخلق روابط بين الشعب الفلسطيني الذي أتبناه وإسرائيل صديقتي». بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك لما قال عن دولة إسرائيل: «قيام الدولة اليهودية هو أهم حدث عرفه هذا العصر».

3- سارتر والحق الفلسطيني

ويتجلى هذا التناقض، الذي يمثل حيرة وجودية زعم سارتر؛ أنها تعبير عن موقف الحياد التي يتخذها من الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وهذا الحياد المزعوم يتأكد عدد من المواقف التي اتخذها من كانوا أكبر مؤيدي سارتر لموقفه الجريء من قضايا الحرية والتحرر ويورد لنا Reda Merida بعض الأمثلة على ذلك.

ففي حزيران/ يونيو 1967، وبعد مُضي سنوات خمس على الاستقلال، أضرّم طلاب جزائريون النار في كتب جان بول سارتر، سارتر الذي كان صديقاً عظيماً للثورة الجزائرية،

وفي ذات الفترة الزمنية تقريباً، طلبت جوزي فانون، أرملة الطبيب النفسي والكاتب المناهض للاستعمار فرانز فانون، من ناشر كتب زوجها الراحل، أن يتخلص من التقديم الذي وضعه سارتر لكتاب زوجها «معذبو الأرض»، وقالت: «من هذه اللحظة فصاعداً، لا شيء يجمعنا بسارتر إطلاقاً»، أمّا في العراق فقد حُظرت كُتب سارتر، وتسايق المثقفون العرب في كل المجالات للتصّصل من تقاربهم مع الفيلسوف القادم من الضفة اليسار لباريس. وإعلانه التضامن مع إسرائيل عشية حرب الأيام الستة في 1967، وضع سارتر حدّاً للحركة الوجودية العربية، ترتب على ذلك أن تشوّه موقفه الثوري المتعلق بنضال التحرر في جميع أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

لقد كان سارتر وأغلبية المثقفين الفرنسيين يمين ويسار الطيف السياسي يؤيدون إنشاء دولة يهودية في فلسطين. يقول سارتر: «لطالما أملت ولا أزال أمل أن تجد القضية اليهودية حلاً جذرياً راسخاً من خلال الأطر الإنسانية بعيداً عن أي اعتبارات جغرافية. لكن وبما أن التحوّل المجتمعيّ يتضمن حتماً مرحلة استقلال وطني، فلا يسعنا إلا أن نرحّب بحقيقة أن دولةً إسرائيليةً تتمتع بالحكم الذاتي أعطت الشرعية لآمال ونضالات اليهود في جميع أنحاء العالم».

وفي أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، دعم سارتر ودي بوفوار دولة يهودية، وكان اليسار الفرنسي متعاطفاً مع الاتحاد السوفيتي الذي كان بدوره داعماً لإسرائيل في البداية، وفي عام 1947، قدم سارتر دعمه للصهيونية صراحة في محاكمة تلميذه روبرت مصر الذي اتهم بشراء أسلحة لصالح عصابة شتيرن، وهي منظمة عسكرية صهيونية تهدف للاستيلاء على أرض فلسطين بالقوة والتخلص من العرب، وقال سارتر «واجب غير اليهود هو مساعدة اليهود».¹³

ومع ذلك لم يعد السؤال الفلسطيني بالنسبة لسارتر، كما يذكر الباحث، قابلاً للتجنّب بعد استقلال الجزائر في 1962. وجد سارتر نفسه مُزَقّاً بين قناعاته السياسية وبين «التزامه



العاطفيّ»، فاختار الحياد- وهو موقفٌ متناقضٌ حافظ عليه بطرقٍ ملتوية ومتضاربة. فمن جهة، أدان سارتر بشكلٍ مستمرٍّ الظروف المعيشية للاجئين الفلسطينيين وأيد حقهم في العودة؛ ومن جهة أخرى، أزر وجود إسرائيل بوصفها دولة ذات سيادة. كانت الجهود التي بذلها سارتر للحفاظ على موقفه «المحايد» هي ما آلت به إلى أزمة ثقافية.

أدى تصاعد التوترات بين مصر وإسرائيل إلى تصعيد عسكري في المنطقة، وحصد هذا التصعيد دعمًا كبيرًا في فرنسا لصالح إسرائيل بعد وقت قصير من رحلته الشهيرة، إلى مصر وغزة وإسرائيل آذار/ مارس 1967، دعمٌ تحوّل إلى حملة عنصرية مناهضة للعرب. وفي هذا الصدد، نشرت صحيفة لو موند «Le Monde» عريضةً لدعم إسرائيل، كان سارتر من بين الموقعين عليها، معلناً بكل صراحة قطيعة بين الفيلسوف الفرنسي وأصدقائه العرب الذين لم يعلموا إلا فيما بعد أن سارتر كره أن يُوقع.

وتأكيداً لبيان حياد سارتر أو تناقضات من أطلق عليه ضمير العصر، نجد هذا التراجع في موقفه، انطلاقاً من السبعينيات وتزامناً مع تكثيف وتصدير النضال الفلسطيني إلى أوروبا، شهدت آراء المثقفين اليساريين بشأن إسرائيل انقلاباً مذهلاً، حتى إن سارتر نفسه وصل إلى حدّ دعم الهجمات الانتحارية. حيث يقول: «لقد دعمت دائماً الإرهاب المكافح المضاد للإرهاب الراسخ، ولطالما عرّفت الإرهاب الراسخ بأنه الاحتلال، والاستيلاء على الأراضي، والاعتقال التعسفي، وما إلى ذلك». لم يعد يُنظر إلى إسرائيل بوصفها جزيرة محاطة بمياهٍ عربيةٍ معادية، بل باعتبارها ترسًا في آلة الإمبريالية الأمريكية، ترسًا كثيف التسليح، يهاجم شعبًا سحقته قرون من الاحتلال العثماني، ثم البريطاني لاحقاً.

لتأكيد حياد سارتر، هناك واقعة أخرى حدثت في يونيو/ حزيران من العام ذاته، خاطب سارتر في رسالةٍ والدة أحد معارضي الخدمة العسكرية في الجيش الإسرائيلي، أكد فيها على أنّه «سيكون من صالح المحكمة تبرئة [المتهم] الذي يُجتمَل أن يقضي سنواتٍ في السجن نظرًا لتصرّفٍ شجاعٍ وواقعيّ: رفض الخدمة العسكرية في جيش كان في بادئ الأمر جيش

دفاع، لكنّه سرعان ما نفذ تكتيكاتٍ هجوميةً وصار قوّة احتلال¹⁴

قال سارتر، الذي تحصّن بالصمت إثر ما أثاره توقيعه من جدل، أن توقيعه كان موقفًا «ضد حرب الأيام الستة الوشيكة» وليس ضد كفاح العرب والفلسطينيين «من أجل الحرية والتقدم». وأدان استخدام إسرائيل للنابالم، واصفًا ذلك «بالعمل الإجرامي»؛ وأوضح لم كان الرأي العام الفرنسي مبدئيًا لإسرائيل في حرب 1967، مبررًا ذلك بأن الموقف الفرنسي جاء مخوفًا بمخاوف من شهود «محاولة ثانية لتصفية اليهود»، موضحًا أن الموقف الفرنسي كان أيضًا مدفوعًا بالجهل بما يحدث على أرض الواقع فعلاً. وصرّح سارتر أن «حروب التحرر هي الحروب الشرعية الوحيدة»، مدينًا بذلك نوايا التوسع الإسرائيلية، حيث وصف حُطّة ضم القدس «بالجنون المطلق». أخيرًا قال إنه يشعر بالأسف حيال تمكن «القوات الرجعية القوية» من الحصول على موطنٍ قدم في إسرائيل، وهو ما يقوّض كل احتماليات السلام¹⁵.

وللعودة إلى تأكيد حياد سارتر، يضيف الكاتب أن سارتر حين حصل في عام 1976 على شهادة دكتوراه فخرية من الجامعة العبرية في القدس. قال في خطاب تسلّم الجائزة إنه سيتشرف بالحصول على نفس اللقب من جامعة القاهرة. وفي 1979 قام سارتر بتنظيم ندوة من أجل تعزيز السلام في الشرق الأوسط، كان المثقفون الفلسطينيون والإسرائيليون مدعوون لحضور الندوة. توفي سارتر بعد ذلك بعام في 15 أبريل / نيسان 1980. علينا الآن بعد السماع إلى محامي الدفاع أن نتقل إلى الشهود، حتى نكمل معرفتنا بما دار في الندوة التي دعا إليها سارتر، وهي شهادة أحد من دعوا إليها وحضرها وهو المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد.

وهذا ما يؤكده حسين منصور الحاج فيما كتبه عن سارتر والحق الفلسطيني الذي أوضح أن نزاع الشرق الأوسط الذي يضع الدولة الصهيونية (إسرائيل) في مواجهة الشعب الفلسطيني، هو من أهم المشكلات التي تشغل العالم بأكمله. هذه المشكلة صعبة



ومعقدة أربكت الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر نفسه، الذي يتخذ تجاهها موقفاً حيادياً وأخلاقياً أكثر منه سياسياً. ويرى منصور أنه يمكننا الحكم على ارتباك سارتر، الذي لم يتردد طيلة حياته في الانحياز واتخاذ موقف واضح تجاه كل مشكلات عصره السياسية، ما عدا هذا النزاع العربي- الإسرائيلي. نراه مرتبكاً جداً إلى درجة أن تصريحاته كانت لا تعجب العرب ولا الإسرائيليين أحياناً كثيرة. هو حاول أن يكون منسجماً مع نفسه، منطلقاً من التزامه في الدفاع عن قضية المقيهورين في أي مكان من العالم. ولكنه لم يكن يرى كيف يمكنه الاحتفاظ بالانسجام مع نفسه وهو يحكم في قضية شعبين تعرّضا، في نظره، للقمع والقهر وهما في حالة نزاع. لقد اختار الحيادية وكانت لديه أسباب معينة كي لا يتخذ موقفاً واضحاً وملتزماً في هذه القضية؟

كان الوضع شديد التعقيد لدرجة أن سارتر لم يستطع اتخاذ موقف واضح دون أن يستاء منه الطرفان. إن صداقة سارتر لليهود لم تمنعه من أن يكون صديقاً للعرب، وخاصة لأولئك الذين يؤمنون بالتقدم والذين يحاولون إقامة الاشتراكية في بلدانهم. وبالفعل، فإن سارتر قام عام 1967 قبل حرب الأيام الستة بزيارة لمصر، حيث أعجب كثيراً بالعمل الذي كان يقوم به جمال عبد الناصر. وفي ختام جولته في الشرق الأوسط قام بزيارة إسرائيل، ويبدو أنه تأثر بعبد الناصر أكثر مما تأثر بالقادة الإسرائيليين. وعلى أثر هذه الزيارة المزدوجة لمصر ولإسرائيل كان سارتر شبه مقتنع بأن حرباً ما ستفجر بين العرب وإسرائيل. وهذا الشعور تكوّن لديه بناءً على محادثة مع عبد الناصر. ويوجز سارتر وجهة نظر عبد الناصر كالآتي:

«هناك تناقض لا نصل إلى حله. ولكن الحل بواسطة الحرب لا يبدو حلاً جيداً». بعد كل ذلك يستنتج أن القضية هي قضية حق: «للفلسطينيين الحق القاطع في العودة إلى ديارهم»، وبالتالي «بكل بساطة لأنهم طردوا يحق لهم أن يعودوا». وإذا كان للفلسطينيين الحق في أن يكونوا في ديارهم وفي أرضهم، فإن اليهود أيضاً لديهم الحق نفسه، ولكن ليس كل اليهود، بل أولئك الذين ولدوا في فلسطين واشتغلوا فيها. يقول سارتر: «إذا كنت أعترف لحفيد أو لابن أحد اليهود الذي أقام في إسرائيل بحق البقاء في وطنه لأنه فيه ولا يجب طرده منه، فأنا

أعترف للفلسطينيين وطبقاً للمبدأ نفسه بحق العودة إلى هذا الوطن»¹⁶.

يعالج سارتر في مقابلة عام 1969 في مجلة «l'arche» النزاع العربي- الإسرائيلي بطريقة حاملة أكثر منها واقعية. في الواقع، هو لا يعتبر أن إسرائيل هي رأس حربة «الإمبريالية الأميركية»؛ بل يعتقد، على العكس، أن إسرائيل والعرب هم ضحايا «الإمبرياليتين الكبيرتين الأميركية والسوفيتية»، وأن النزاع في الشرق الأوسط هو نتيجة للتنافس القائم بين هاتين «الإمبرياليتين». إن سارتر الذي كان يؤمن بنهاية الحركة الصهيونية، وبالنوايا الحسنة لليسار العربي والإسرائيلي، سمح لنفسه بالتعبير عن أمل حالم أكثر منه ممكن التحقق بحلول سلام في الشرق الأوسط، يمكن أن يوحد أولئك الذين يتعرضون للاستغلال، سواء كانوا عرباً أم يهوداً، في الكفاح من أجل الثورة الاشتراكية، وهذا لن يتحقق إلا بدمج الاقتصاد الإسرائيلي في إطار الشرق الأوسط؛ حتى لا يكون هناك أي مبرر للارتباب بين المعسكرين.

بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982؟ وبعد مجازر «صبرا وشاتيلا» التي ارتكبت بتواطؤ الإسرائيليين مع بعض القوى اليمينية اللبنانية المتطرفة آنذاك، ضد المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين؟ كان من الممكن جداً أن يغير موقفه تجاه إسرائيل، إنه من أجل تماسك الفكر السارترى، ونظراً للمعطيات المشككة، كان من الممكن أن يتخذ موقفاً أكثر وضوحاً وأكثر التزاماً، وبالتالي أكثر واقعية، بكلمة، يمكننا القول إن موقف سارتر حول الشرق الأوسط هو المثال النموذجي عن التباس أخلاق الالتزام الفردي¹⁷.

وقد اهتم أحمد بهاء الدين بتوضيح أين أخطأ سارتر، وأين أصاب في كتابه التحليلي عن مشكلة اليهودية؟

حيث رأى:

1- إن سارتر قد بالغ كثيراً في تحليله. فذهب إلى أقصى الحدود في إلقاء مسؤولية نذ اليهود على المجتمعات التي ينشأ فيها اليهود. أي على العالم كله.. في حين لم يفكر



لحظة واحدة في أن يكون اليهود أنفسهم مسؤولين - ولو إلى حد ما - عن هذا النبذ الذي يعيشون فيه.

2- يضاف إلى ذلك أن اليهودي دائماً قلق في أعماقه. إنه لا يطمئن أبداً إلى استمرار ملكيته لأي شيء. إنه لا يستطيع أن يثق في أن مركزه أو ممتلكاته أو قوته في المجتمع الذي يعيش فيه يمكن أن تستمر غداً.. تاريخه عبارة عن عشرين قرناً من التيه والتجوال.. إنه مستعد في أي لحظة لأن يحمل عصاه على كاهله ويرحل. إنه لا يمكن أن يستشعر فعلاً استقرار «الآري» الذي لا يمكن مناقشه التصاقه بأرضه وانتماؤه لوطنه، وكل القيم الاجتماعية المعترف بها في بلاده.

على هذا النحو يمضي سارتر في سرد كثير من الصفات التي أصبحت لاصقة بشخصية «اليهودي» في الذهن العام. مبرراً لها جميعاً بأنها رد فعل ونتيجة لمعاملة المسيحية الأوروبية، والقوميات الأوروبية لليهود خلال 2000 سنة مستمرة من الزمان.

3- إن الملاحظة البارزة على هذا الكتاب هي أن سارتر كتبه بلهجة المحامي، الموكل للدفاع عن قضية معينة. فهو يشعر أن من واجبه تبرير كل شيء. والدفاع عن كل شيء. ونفى كل مسؤولية - صغيرة أم كبيرة - عن موكله!

4- بالرغم من أن سارتر أشبع كل شيء يتصل بالمسألة اليهودية عرضاً وتحليلاً، فإنه لم يذكر الصهيونية إلا في سطور تعد على أصابع اليد الواحدة؟.. رغم أن الصهيونية - كدعوة عنصرية - أقدم من النازية نفسها بعشرات من السنين؟.. لأنه لو وضع الصهيونية في مكانها المناسب من الأهمية، فكأنه وضع اليهود أو فئة كبيرة منهم تحت رحمة كل مدافعه الثقيلة التي يصوبها في كتابه إلى النزعات العنصرية وإلى كل أنواع التعصب. ومن المؤكد أن أي دراسة للمسألة اليهودية الآن لا تهتم بالدعوة الصهيونية فكرياً وسياسياً وتاريخياً.. تكون دراسة وناقصة ومتحيزة إلى حد كبير؟..⁽¹⁸⁾

هذا الفيلسوف الملتزم بالحرية ومواقفه ضد الظلم والاضطهاد نفسه في حالة ارتباك تجاه

القضية الفلسطينية، فاليهود يغتصبون فلسطين، وهم أنفسهم عانوا من اضطهاد طويل في الغرب. حاول سارتر (1905-1980) أن يكون محايداً تجاه الطرفين لأول مرة في حياته، إلا أن رؤية سارتر المحايدة لم تمنعه من القول: إن إسرائيل هي رأس حربة لأميركا، وإن الإسرائيليين والعرب ضحايا الصراع بين أميركا وروسيا. لكن يبقى السؤال الذي يطرحه محسن عبد العزيز: لو كان سارتر يعيش بيننا الآن وشاهد المجازر وعمليات الإبادة التي تحدث يومياً في غزة، هل كان سيظل محايداً؟! بالتأكيد لا.⁽¹⁹⁾

يمكن أن تكون تقدماً باستثناء ما يتعلق بفلسطين

تشير رقية زروق في مقالها في مجلة Current Affairs تحت عنوان: «Jean-Paul Sartre and the Problem of Being Progressive Except for Palestine» إلى أن العديد من التقدميين المزعومين يهدفون أن يظلوا «محايدين»، محاولين السير على حبل مشدود لإرضاء المؤيدين على جانبي الصراع؛ وتستعين بعبارة أحد الأشخاص المطلعين على الحملة من أجل حقوق الإنسان الفلسطيني؛ التي تقول «تقدمية باستثناء فلسطين» كوصف عام للشخصيات اليسارية داخل السياسة الأمريكية؛ الذين يدون أنهم يدعمون العدالة العرقية والعدالة الاقتصادية ويميلون إلى اليسار، ولكنهم في طرفة عين، يصيبهم بعض الذهول عندما يطلب منهم توسيع سياساتهم لتشمل قضية فلسطين.²⁰

لقد اعتقد العديد من العرب أن سارتر «يتاجر بالتعويضات الأخلاقية لأجل الصهاينة»، حيث امتنع عن إبداء رأيه لأطول فترة ممكنة. نظراً لكونه قد كان أبرز محلل أوروبي لسياسات التحرير المناهضة للاستعمار في ذلك الوقت، شعر بضغط متزايد للدخول علانية في المعركة. بالنسبة للعديد من العرب الذين أيدوا تحرير فلسطين، كان موقف الحياد موقفاً غير معقول - وكان البعض يأمل في أنه قد يتغير بعد أن شاهد الفقر المدقع في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، في جبالا ودير البلح. أنه بعد زيارة سارتر لهذه المخيمات، صرح علناً: «بفضل مساعدتكم، تمكنت من مشاهدة الواقع الفلسطيني»، قال «أود أن أعرب



عن تعاطفي معكم... أود أن أؤكد لكم أنني أعترف تمامًا بالحق الوطني لجميع اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى بلادهم.»²¹

توقع العرب اتساقاً فكرياً وسياسياً من سارتر. لقد توقعوا منه أن يستخدم اللغة الوجودية والإنسانية التي استخدمها في كثير من الأحيان كسلاح ضد القوى القمعية الأوروبية لصالح قضية فلسطين. إلا أن الحصاد كما ترى كان الفاكهة المرة، ففي عام 1967، عندما وقفت المنطقة على شفا الحرب، وضع حكم سارتر المتعاطف في الميزان. في المحطة الأخيرة من رحلته إلى إسرائيل، كان كل من سارتر وشريكته دي بوفوار «مخجلان من مصير اليهود في أوروبا ويسعدان برؤية أنهم بينون حياة اشتراكية جديدة لأنفسهم» في إسرائيل. تركهم هذا اللقاء متأثرين بشدة، وغادر سارتر إسرائيل برأي أكثر تعاطفاً مما كان عليه عندما وصل. لكن هيئة المحلفين ما زالت بانتظاره: فقد رفض سارتر اختيار جانب، قائلاً إنه لا يزال يشغل منصب «الغياب»، وبعبارة أخرى، لا رأي على الإطلاق.

إن سياسة الحياد التي التزم بها سارتر، ستدفعه إلى إدارة ظهره للمثقفين العرب. تبلور هذا «الفعل الخائن الأيقوني» في أذهانهم بعد أن وقع سارتر ودي بوفوار، بياناً مؤيداً لإسرائيل أكد سيادة إسرائيل وحقها في الوجود. في الوقت الذي كان فيه سارتر يأمل أن يظل محايداً تقريباً بشأن النزاع، فسّرت هذه البادرة على أنها دعم صارخ لإسرائيل، ودمرت أي وهم بأنه لم يتخذ جانباً. عندما اتهمه لطفي الخولي بالتخلي عن نضال الشعب العربي بعد التوقيع على البيان قبل حرب الأيام الستة، أجاب سارتر: «كل ما فعلته هو اتخاذ موقف مبدئي ضد الحرب. لم أغير دعمي للنضال العربي والفلسطيني من أجل الحرية والتقدم».²²

لقد تغاضى المفكر الذي أطر للوجودية كمذهب إنساني عن فكرة «العدل الوجودي» و«الحرية المتبادلة»، وتعامى عن الاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين. لم يتطرق لمنطق العدل وحرية الفلسطينيين في الوجود. لقد سلبهم وجودهم في منهجه الظاهري، ودون أن يستخدم منهجاً تاريخياً لمقاربة المشكلة وتحليل جوهرها، بل اعتمد على مجموعة من

الانطباعات الذاتية لمجموعة من الناس جمعها في مقابلات خاصة.

لقد قفز فيلسوف الحرية الإنسانية، عاصباً عينيه، على خطيئته في حق الإنسان الفلسطيني الذي سلبه حرّيته الوجودية، معتبراً أنّ العلاقة بين الاحتلال الإسرائيلي والفلسطينيين هي علاقة متساوية بين طرفين مظلومين. وهناك إزاحة في الزمان والمكان والتاريخ في تبرير سارتر لدعمه للحق الإسرائيلي على حساب الحق الفلسطيني، كما يوضح الدكتور حاتم الجوهري. فعلى الصعيد المكاني، ظلّم اليهود في أوروبا فكيف يكون الحل في فلسطين؟ أما الزماني، فقد ظلمت أوروبا اليهود على مدار العصور الوسطى، كيف يجيء الحل في القرن العشرين على حساب الفلسطينيين؟ وعلى الصعيد التاريخي، فقد انتهى وجود الجماعات اليهودية في المنطقة كسلطة سياسية منذ فترة تزيد على الألفي عام، فكيف يستخدم ذلك لتبرير سلبهم لحق الفلسطيني؟²³

وقبل شهر من حرب يونيو/ حزيران 1967 وقّع الثنائي سارتر وبوفوار بياناً ضمن 66 مثقفاً فرنسياً دعا الفرنسيين إلى دعم إسرائيل، معتبراً أن إسرائيل «الدولة الوحيدة التي يجري التشكيك في وجودها، والتي يجري تهديدها من القادة العرب»، رفض البيان فكرة أن إسرائيل أمة إمبريالية. وتابع البيان «إنه من غير المفهوم تحديد هوية إسرائيل بكونها ضمن معسكر إمبريالي وعدواني». قرئ البيان في العالم العربي باعتباره خيانة للقضايا العربية والفلسطينية. وعلى الرغم من هذا الرفض من قبل المثقفين العرب؛ سعى سارتر للحفاظ على موقفه الحيادي المزعوم من إسرائيل والفلسطينيين، وأثار ذلك غضب مضيفيه الإسرائيليين، ولم يرض قراءه العرب الذين اعتبروه خائناً لقضية معاداة الاستعمار، وعندما اندلعت الحرب كانت الوجودية تتراجع بقوة في العالم العربي بسبب تأييد سارتر لإسرائيل.²⁴

5- إدوارد سعيد وسارتر

يذكر إدوارد سعيد أنّ المناقشات مع ميشيل فوكو - Michel Foucault تجعله يشعر بخيبة أمل، لقد كان ودوداً مع الشخص الذي ألهمه في تأملاته في الخطاب» يقول: أدركت



سبب تردّد ميشيل فوكو في الحديث معي عن سياسات الشرق الأوسط [...] بعد وقت قصير من نشر بعض من مقالاته حول الموضوع، نأى بنفسه بسرعة عن الحديث في هذا الموضوع في نهاية الثمانينيات أخبرني جيل دولوز Gilles Deleuze، كما يذكر سعيد أن فوكو، وهو من أصدقائه المقربين، أنّه حدثت بينهما قطيعة بسبب خلافاتها حول فلسطين، فلقد دعم فوكو إسرائيل، بينما وقف دولوز في صفّ القضية الفلسطينية، لا عجب إذاً أنّه لا يريد مناقشة قضية الشرق الأوسط مع سعيد أو أي شخص!، إن موقف ميشال فوكو من القضية الفلسطينية ليس خاصاً به فقط، حيث يشاطره العديد من المثقفين الفرنسيين الرأى، وإن كانت هناك بعض الاستثناءات ملحوظة، مثل، المؤرّخ بيير فيدال ناكيه Pierre Vidal-Naquet، جيل دولوز، جين جينيه Jean Genet الذي أقام بين الفلسطينيين، ويعتبر نصّه «أربع ساعات في شاتيل» من أجمل ما كتبه عن القضية الفلسطينية²⁵.

إن هذا النوع من التّدوات وما شابهها فيما يرى سعيد، هي وسيلة لإحداث اختراق في صفوف النخبة المناهضة لفكرة الاستعمار، وكسر الحصار المضروب على دولة إسرائيل، إن هذه الفعاليات «غير البريئة» تهدف بالأساس استغلال انتقاد المواقف السياسيّة التي اتّخذها المثقفون الشيوعيون لدفن الجدل حول قضية فلسطين، وهذا خلف ابتزازاً كان من الصّعب تجنّبه، دعم الفلسطينيين هو علامة على التطرّف الأيديولوجي.

كان سعيد ناشطاً جدّاً في السياسة الفلسطينيّة: أصبحت عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني في عام الصراع مع إسرائيل. يؤكّد سعيد في حديثه عن اللقاء الذي حضره بدعوة سارتر أن الموضوع الحقيقي للاجتماع؛ هو توطيد إسرائيل (التي تسمى اليوم «التطبيع»)، وليس الفلسطينيين أو العرب. لقد وجدت نفسي بالضبط في موقع العديد من العرب قبلي، الذين رأوا أنّه من المناسب محاولة إقناع مفكر رائد (مثل سارتر أو غيره) بأهميته، على أمل أن يصبح أرنولد توينبي جديداً.

إلا أنّه حين طلبوا من سارتر الحديث، جاء في اليوم التالي بنص مكتوب من صفحتين.

لا يحتوي أي كلمات للإشارة إلى الفلسطينيين أو ماضيهم المأساوي، الأراضي المحتلة. ولم تكن هناك إشارة إلى الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي يمكن مقارنتها في كثير من النواحي بالممارسات الفرنسية في الجزائر. يعلّق سعيد: لقد اندهشت تمامًا عندما رأيت أن هذا البطل الفكري قد استسلم، في سنواته الأخيرة، لمعلم رجعي، وأن موضوع فلسطين، وهي مسألة ذات إلحاح أخلاقي وسياسي - على نفس المستوى. مثل الجزائر وفيتنام.

إن سارتر لم يتنازل أبدًا عن مواقفه تجاه إسرائيل. لقد ظل سارتر ثابتًا بشكل فعال في محبته للصهيونية الأساسية. الخوف من أن يُنظر إليه على أنه معاد للسامية، والشعور بالذنب تجاه الهولوكوست، ورفض السماح لنفسه بفهم عميق للفلسطينيين كضحايا في النضال ضد ظلم إسرائيل، أو لسبب آخر؟ لن أعرف أبدًا. كل ما أعرفه هو أنه في شيخوخته كان مختلفًا قليلًا عما كان عليه في السابق.²⁶

يتناول عبد الوهاب البراهمي في دراسته الإثيقا في اختبار السياسة عدة فلاسفة غربيون في مواجهة «النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني».. بين الالتزام الخجول و«فلسفة الحياد» المزعوم والدعم السياسي «الخفي» «لحق الأقوى». موضعًا أننا كثيرًا ما نجد أن هناك «مسافة»، بين أفكار الفيلسوف وأقواله وبين «مواقفه» من قضايا الإنسان. وتمثّل «القضية الفلسطينية» أبرز القضايا المعاصرة التي ما تزال تشكل «اختبارًا حقيقيًا» «لالتزام الفيلسوف» الأخلاقي، لأفكاره حول «الإنسان». ذلك أن القضية الفلسطينية هي قضية «الحرية» في أعماق معانيها، قضية «الإنسان المضطهد»، وهي «قضية تحرر الإنسان من أشكال اضطهاد التي يمارسها الإنسان على الإنسان». من هنا، فلا مناص للفيلسوف من أن «يفكّر فيها» ويضطلع بمسؤوليته الفكرية تجاهها، بل وبمسؤوليته «السياسية والإيثيقية» تجاهها.

ويتناول «سارتر» على أنه أوضح مثال على ذلك بحكم ما عرف عنه من نزعة «إنسانية» و«التزام» فكري وسياسي و«انتصار لقضايا» «التحرر». بيد أن التزامه هذا، يجد نفسه أمام اختبار عسير، حينما يتعلّق الأمر «بالقضية الفلسطينية»، لينكشف «السياسي» حدًا «للإيثيقي»



يحمل سارتر على ضرب من «الحياد الزائف» والمقنّع، فيصبح «صديق الجميع» (الفلسطينيين والإسرائيليين على حدّ سواء) هكذا دون أن يحسم موقفه بوضوح تجاه «الكيان الإسرائيلي» بوصفه محتلاً.²⁷

الهوامش

- 1- انظر عن زيارة سارتر لمصر: عايدة الشريف «سارتر في القاهرة» أوراق فلسفية، العدد 14 ص 87-108 وأيضاً هدى وصفي بالفرنسية «سارتر في مصر».
- 2- انظر عبد المجيد عمراني: جان بول سارتر والثورة الجزائرية مكتبة مدبولي، القاهرة د.ت ودراستنا، سارتر والمقاومة الجزائرية من أعمال ندوة «خمسون عاماً على انطلاق ثورة الجزائر»، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية قسنطينة، الجزائر 2004 ونشرت بالملف الخاص عن سارتر أخبار الأدب، القاهرة.
- 3- عبد الكبير الخطيبي: دموع سارتر، أوراق فلسفية العدد 13، ص 45.
- 4- سهيل إدريس: رسالة إلى سارتر، مجلة الآداب البيروتية، العدد الخامس 1965.
- 5- أحمد عباس صالح: الكاتب القاهرية العدد 72 عام 1967.
- 6- سهيل إدريس: الآداب البيروتية، عدد شباط/ فبراير 1967.
- 7- خيرى منصور: سارتر والعرب، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد الثالث.
- 8- جورج طرابيشي: سارتر والماركسية، دار الطليعة، بيروت 1964.
- 9- (فهموه في البداية بدلاً للماركسية «فهمنا سارتر في البداية فهماً خاطئاً». ذلك أننا لم نقرأه هو، بل قرأنا لديه ما كنا نريد أن نقرأه وتحول الحماس العربي لسارتر لدى هذا الفريق إلى سبب في إعادة النظر في كل من سارتر والماركسية، وبفضل سارتر اكتشف هؤلاء عبر التجربة ماركسية جديدة حية، قريبة الشبه بهاركسيات القرن العشرين، لدى جارودي -قبل تحوله- ولوكاش وأدم شاف وغيرهم، لقد أدى بهم سارتر في لحظة إعادة النظر إلى اكتشاف ماركسية مغايرة للماركسية التقليدية، الماركسية كما يفهمها الأوثوكسيون، يسميها طرابيشي «الماركسية الحية» لقد حقق لهم الفكر الوجودي السارترى إعادة الاكتشاف هذه والتي حصيلتها دراسة طرابيشي، التي يهدف منها كما نجبرنا لتحقيق هدفين هما: إعادة اكتشاف الماركسية وإعادة اكتشاف الفكر السارترى، الذي أسيء فهمه في البداية يقول: «لقد وجدنا فيه ذلك الفكر النقاد الذي يسدد ضربات إلى الماركسية دون أن يقع مع ذلك في أحابيل اليمين. وجدنا فيه ذلك اليساري الذي نطمح أن نكونه، اليساري الذي يحافظ على يسارته دون أن يكون شيوعياً، بل دون أن يكون ماركسياً. لقد لبي سارتر -إن بشكل مؤقت- مطلباً لدى أبناء هذا الجيل، الرافضين المتمردين، على غير طريق محدد، الذين يبحثون عن طريق للثورة والتغيير، الرافضين للنظم السائدة (اليمينية) من جهة والخائفين من الماركسية من جهة ثانية.
- 10- يحمل كتاب سارتر العنوان التالي «Réflexions sur la question juive»، ترجمه إلى العربية د. حاتم الجوهري تحت عنوان «تأملات في المسألة اليهودية»، روافد للنشر والتوزيع، 2016. <https://m.2016.ahewar.org/s.asp?aid=719575&r=0>



11- <https://m.ahewar.org/s.asp?aid=719575&r=0>

12- نضال ممدوح، رغم انخراطه في المقاومة الفرنسية هذا موقف سارتر من القضية الفلسطينية، الدستور، 22 تشرين الأول/ أكتوبر/ 2023: <https://www.dostor.org/4532163> ومن بين مؤلفات جان بول سارتر، يأتي كتابه «تأملات في المسألة اليهودية»، كيف أن سارتر وظّف فلسفته لصالح تأكيد أوهام صهيونية، بذريعة الاضطهاد الذي لاقاه اليهود في تاريخ العالم.

13- علي المجيني، عن جان بول سارتر وفلسطين

<https://www.alfalq.com/%D8%B9%D9%86-%D8%AC%D8%A7%D9%86-%D8%A8%D9%88%D9%84-%D8%B3%D8%A7%D8%B1%D8%AA%D8%B1-%D9%88%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86/>

<https://www.middleeasteye.net/opinion/jean-paul-sartre-and-palestine?disableGlobalInfoCollect=false>

14- المرجع السابق.

15- نفس الموضوع.

16- د. حسن منصور الحاج، جان بول سارتر والحق الفلسطيني، آخر تحديث: 26:14-12 حزيران/ يونيو 2023 م - 22 ذو القعدة 1444 هـ-

<https://aawsat.com/%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D9%82/%D8%AA%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82%D8%A7%D8%AA-%D9%88%D9%82%D8%B6%D8%A7%D9%8A%D8%A74793371/-%D9%83%D9%8A%D9%81-%D8%AA%D9%85-%D8%AA%D8%B7%D9%88%D9%8A%D8%B1-%D8%AA-D8%B5%D9%85%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%B3%D8%B9%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A9-%D9%84%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AC%D8%AF-%D8-A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D8%A7%D9%85%D8%9F>

17- نفس المرجع.

18- أحمد بهاء الدين: جان بول سارتر ومشكلة اليهودي.

<https://group194.net/article/18299>

19- محسن عبد العزيز، سارتر وقضية فلسطين، الثلاثاء 23 كانون الثاني/ يناير 2024

<https://www.albiladpress.com/news/20245579//columns/846477.html>

ذاق فيلسوف الوجودية جان بول سارتر مرارة الاستعمار النازي لبلاده فرنسا، وذاق مرارة السجن أيضاً، فتحول في نظر الكثيرين إلى بطل من أبطال التحرير في العالم، لديه القدرة على اتخاذ المواقف القوية إلى جانب المضطهدين والأقليات ضد الاستعمار والمستغلين دون أن يهتز.

20- رقية زروق، جان بول سارتر ومشكلة أن تكون تقديمياً باستثناء فيما يتعلق بفلسطين.

<https://www.alhadath.ps/article/143395/%D8%AC%D8%A7%D9%86-%D8%A8%D9%88%D9%84-%D8%B3%D8%A7%D8%B1%D8%AA%D8%B1-%D9%88%D9%85%D8%B4%D9%83%D9%84%D8%A9-%D8%A3%D9%86-%D8%AA%D9%83%D9%88%D9%86-%D8%AA%D9%82%D8%AF%D9%85%D9%8A%D9%8B%D8%A7-%D8%A8%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%AB%D9%86%D8%A7%D8%A1-%D9%81%D9%8A%D9%85%D8%A7-%D9%8A%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%82-%D8%A8%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86>

21- نفس المرجع.

22- الموضوع السابق.

23- سارتر في «خان الخليلي»... أغلق باب السيارة على أصابع سهيل إدريس وأنكر حق الفلسطينيين.

<https://raseef22.net/article/1087790-%D8%B3%D8%A7%D8%B1%D8%AA%D8%B1-%D9%81%D9%8A-%D8%AE%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D9%84%D9%8A%D9%84%D9%8A-%D8%A3%D8%BA%D9%84%D9%82-%D8%A8%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A3%D8%B5%D8%A7%D8%A8%D8%B9-%D8%B3%D9%87%D9%8A%D9%84-%D8%A5%D8%AF%D8%B1%D9%8A%D8%B3-%D9%88%D8%A3%D9%86%D9%83%D8%B1-%D8%AD%D9%82-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A%D9%8A%D9%86>

24- سارتر ودي بوفوار.. كيف شكلت القضية الفلسطينية نهاية لثنائي الفلسفة الوجودية الأشهر؟

<https://www.ajnet.me/culture/2020/3//%D8%B3%D8%A7%D8%B1%D8%>



AA%D8%B1-%D9%88%D8%AF%D9%8A-%D8%A8%D9%88%D9%81%D9%88%D8%A7%D8%B1-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B6%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A%D8%A9

25- عبد الغني بومعزة، فشل وخيبة أمل: لقاء إدوارد سعيد مع سارتر / إثارة.

26- الفيلسوف، إسرائيل والعرب، لقاء إدوارد سعيد مع جان بول سارتر، ترجمة د. زهير الخويلدي.

<https://alrai.com/article/788480/%D9%87%D9%8A%D9%84%D8%A7%D8%B1%D9%8A-%D9%88%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D9%84-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B6%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A%D8%A9>

الإثنين 08 آب / أغسطس 2022 / 19:03. الأهرام، القاهرة،

13- نيسان / أبريل 2000. إدوارد و. سعيد: مجلة العالم الدبلوماسي، عدد 09، أيلول / سبتمبر، 2000، ص ص 4-5. الرابط:

<https://www.monde-diplomatique.fr/200009//SAID/2409>

27- عبد الوهاب البراهمي الإيتيقا في اختبار السياسة.

<https://www.almothaqaf.com/qadaya/972372-%D8%B9%D8%A8%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%88%D9%87%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%85%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%8A%D8%AA%D9%8A%D9%82%D8%A7-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D8%AE%D8%AA%D8%A8%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D8%A9>

نشر بتاريخ: 16 تشرين الثاني / نوفمبر 2023.



من جدارية ارتجالات الحياة - مصطفى حلاج